﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ [الحجر: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المُقايَسةُ بالنّظرِ إلى السّماءِ والأرضِ اسْتِدلالٌ على أُلوهيَّةِ الله وتَوحيدِه

لمّا ذكرَ اللّه تعالى آيةَ السّماءِ على تَوحيدِه وتفرُّدِه بالإلهيَّةِ ثنّى بآيةِ الأرضِ، لِمناسبةِ المُضادّةِ والمُقابلةِ[1].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿مَدَدۡنَٰهَا﴾: (مدّ): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيءٍ في طول، واتِّصالِ شَيءٍ بِشَيءٍ في اسْتِطالَةٍ[2]، تَقولُ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا. ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نَهرٌ آخَرُ، أي: زادَ فيهِ وواصَلَهُ فَأطالَ مُدَّتَهُ[3]. ومنه: المُدّة للوقتِ المُمتدّ[4]. ومدَّ اللّهُ الأرضَ يَمُدُّها مَدًّا بَسَطَها وسَوّاها، ويُقالُ: مَدَدْت الأرض مَدًّا إذا زدت فيها تُرابًا أو سَمادًا مِنْ غَيْرِها ليَكونَ أعمَرَ لَها وأكثرَ رَيْعًا لِزَرْعِها، والمِدادُ: ما يُكْتَبُ بِهِ، لِأَنَّهُ يُمَدُّ بالماءِ. ومَدَّه في غَيِّه، أي: أمهلَه وطَوَّلَ لَهُ[5]، والمقصود بالمَدِّ في الآية: البَسْطُ والسِّعَةُ.

2) ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾: أَصْلُ (لقي) يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[6]، واللَّقى: الشَّيْءُ المُلْقى المَنْبوذُ[7]، والإِلْقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارفِ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[8]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلامِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/34، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/35.
(2) وعبّر محمد حسن جبل عن ذلك بأنه استطالة جِرم الشيء في نفسه أو باتصاله بغيره، فيزيده طولا أو قدرا. يُنظر: جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مد).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مد، مدد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (مدد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقى).

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غيرِ سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64][1]، والمُرادُ بالإلقاء في الآية: تَمثيلٌ لتكوينِ أجسامٍ بارِزةٍ على الأرضِ مُتَباعِدٌ بعضُها عَنْ بعضٍ؛ لأنّ حَقيقةَ الإلقاءِ: رميُ شَيءٍ مِنَ اليَدِ إلى الأرضِ، وهذا استِدلالٌ بِخِلْقَةِ الجِبالِ في الآية[2].

3) ﴿رَوَٰسِىَ﴾: أصلُ (رسا): يَدُلُّ على ثَباتٍ. تَقولُ رَسا الشَّيْءُ يَرْسو، إذا ثَبَتَ، وأرساه غيرُه[3]، والرَّواسي مِنَ الجِبالِ: الثَّوابتُ الرَّواسِخُ؛ قال الأخفشُ: واحِدَتُها راسيةٌ[4]. ورَسَتْ قَدَمُه: ثَبَتَتْ في الحَرْب. ورَسَتِ السَّفينةُ تَرْسو رُسوًّا: بَلَغَ أسفلُها القَعْرَ وانْتَهَى إلى قرارِ الماءِ فَثَبَتَت وبَقِيَتْ لا تَسيرُ، وأرْساها هو[5]. والرَّسِيُّ: العَمودُ الثّابِت في وسَط الخِباء[6]، وألقى مراسِيَه كنايةً عنِ الإقامة[7]. والمقصودُ بالرُّسوِّ في الآية: الثَّباتُ والقَرارُ.

4) ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾: أصلُ (نبت): أصْلٌ واحِدٌ يدُلُّ على نَماءٍ في مَزْروعٍ، ثُمَّ يُسْتَعارُ. فالنَّبْتُ مَعروفٌ، يُقالُ نَبَتَ، وأنْبَتَتِ الأرْضُ[8]. ونَبَّتَ الزرعَ والشَّجرَ تَنْبيتًا إذا غَرَسَه وزَرَعه. ونَبَّتُّ الشجرَ تَنْبيتًا: غَرَسْتُه، والنّابتُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: الطَّريُّ حينَ يَنْبُتُ صَغيرًا؛ وما أحْسَنَ نابتةَ بَني فُلانٍ، أي: ما يَنْبُتُ عليهِ أموالُهم وأولادُهم. ونَبَتَتْ لَهُم نابتةٌ إذا نَشأ لَهُم نَشءٌ صغارٌ، وإنَّ بَني فُلانٍ لنابتةُ شَرٍّ، والنوابتُ مِنَ الأحداثِ: الأغْمارُ[9]. والمقصود بالإنباتِ في الآية: تكوينُ النَّباتِ.

5) ﴿مَّوْزُونٍ﴾: أصلُ (وزن): بِناءٌ يَدُلُّ على تَعْديلٍ واسْتِقامَةٍ، أو: ثِقَلُ الشّيءِ مع عدم انتشار أبْعادِه، ولا يكونُ ذلك إلا بتعديلٍ واستقامةٍ، وزَنْتُ الشَّيْءَ وزْنًا. يُقالُ: قامَ ميزانُ النَّهارِ، إذا انْتَصَفَ النَّهارُ، وهذا يوازِنُ ذلكَ، أي: هو مُحاذيهِ، ووزينُ الرَّأيِ: مُعتَدِلُهُ[10]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/123.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/288.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رسا)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رسو).
(4) الأخفش، معاني القرآن: 2/401.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رسا).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسا).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسا).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبت).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نبت).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وزن).

والوزْنُ: فِعْلُ الوزّانِ ما يَزِنُ بالميْزانِ[1]، والوزْنُ أيضاً: الاعْتِدالُ والاِسْتِقامَةُ، ومنه قَوْلُهُم: وزَنَ فُلانٌ كَلامَهُ، أيْ: تَكَلَّمَ بِاعْتِدالٍ، والجمعُ: أوْزانٌ[2]. ولفظُ ﴿مَّوۡزُونٖ﴾ في الآية: مُسْتَعارٌ لِلْمِقْدارِ المَضْبوطِ. أي: مُقدَّرٌ بمقدارٍ مُعيَّن، وموزونٌ بميزانِ الحكمةِ، بحيث تتوافرُ فيه كلُّ معاني الجمالِ والتَّناسُقِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جعلَ الله تعالى كـلَّ شيءٍ في الحياةِ موزونًا بقَدَرٍ معلومٍ

بعد أن ذَكَرَ اللّٰه تعالى الدَّلائلَ السَّماويّةَ على وَحدانيّته أتْبعَها بذكرِ الدَّلائلِ الأرضيّةِ، فقال: والأرضَ بَسَطْناها، ووسَّعْناها سَعةً تتمَكَّنُ المخلوقاتُ فيها منَ الامتدادِ بأرجائِها، والتَّناوُلِ من أرزاقِها، والسُّكونِ في نواحيها، وجعَلْنا فيها جِبالًا ثابتةً تُمسِكُ الأرضَ؛ لِئلّا تَضطَرِبَ بأهلِها، وأوْجَدْنا في الأرضِ مِنْ كُلِّ شيءٍ مُقَدَّرٍ بقَدَرٍ مَعْلوم، بقصدٍ وإرادةٍ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الوصلِ بالواو: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

دَلائـلُ التّوحيدِ ظاهرةٌ في الأرضِ كـمـا هــي في السّماءِ

لمّا كانت الواوُ للعطف؛ فقد أفادت دُخولَ الجُملةِ المعطوفةِ في حيِّزِ التّأكيدِ بـ﴿وَلَقَدۡ﴾، لتكونَ معطوفةً على ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾[5]، وأفادَ التّأكيدُ هنا إضافةً لما تقدّمَ في دلالة ﴿وَلَقَدۡ﴾ تحقيقَ مدِّ اللّٰه تعالى للأرضِ وتقريرِه؛ إظهارًا لدلائلِ التّوحيد.

مُناسبةُ الوصْلِ في الآية:

المقابلةُ بين إبداعِ الـلـه تـعـالى في الـسّـمـاءِ وفي الأرضِ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنّه تعالى جعلَ بروجًا في السّماءِ ثابتةً

---

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وزن).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (وزن).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/35، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/30.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/13، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/529، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/71.

فيها وأنَّه زيّنَها للنّاظِرين قابلَ هذه الآياتِ في السَّماء بذكرِ مدِّ الأرضِ وإلقاء الجبالِ فيها؛ لتكونَ مركوزةً في الأرضِ، وأنَّه أنبتَ فيها النّباتَ لنفعِ الخلْقِ، وليكونَ زينة للأرض كذلك، فيكونُ بمثابةِ المقابلة بين فعلِ اللّه في السّماء وفعْلِه سُبحانه في الأرضِ.

دلائلُ التّوحيدِ ظاهرةٌ لِمَن أعمَلَ نظرَه واعتبَرَ

فائدة (ال) في: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

(ال) هنا للعهدِ الذّهنيّ؛ للإيذانِ بأنَّه كما أنَّ الآياتِ الباهرات التي في السّماء معهودةٌ عندكم قريبةٌ منكم، فكذلك الآياتُ التي في الأرضِ معهودةٌ عندكم وهي أمامَ أنظارِكم.

تقرير المعنى في الأذهان بطريق الإجمال ثمّ التّفصيل

دَلالةُ التّعبيرِ بالتّركيبِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

لمّا جاء لفظُ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ منصوبًا دلَّ على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه المذكورُ، فالفعلُ المذكورُ فسَّر المحذوفَ، وتقديرُ الكلامِ: ومددْنا الأرضَ مددْناها، وفيه برزَ الكلامُ في معرضِ الاعتدالِ نظرًا إلى إيجازِه في اللّفظ من وجهٍ، بسبب الفعلِ المحذوفِ، وإلى إطنابه من وجهٍ آخرَ نظرًا إلى أنّ الجملةَ على نيَّة التَّكرار، ومنَ الإطنابِ كذلك التّفصيلُ بذكْرِ الفعْلِ ومُتعلَّقاته بعد الإجمالِ بذكرِ الأرْضِ[1].

فائدةُ مجيءِ الجُملة فعليَّةً في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

آثــارُ أفـعـالِ اللـه دالَّـةٌ على توحيدِه وبديعِ صُنعِه

لمّا كانت هذه الجملةُ الفعليَّةُ معطوفةً على الجُملةِ الفعليَّة في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾[2]، جاءَ الكلامُ بصيغةِ الجُمَلِ الفعليَّةِ تقريرًا للآياتِ بذكْرِ أفعالِ اللّه بما تدلُّ عليه آثارُها على أُلوهيَّته سُبحانَه وتوحيدِه وعظيمِ قُدرتِه وبديعِ خلْقِه.

إلقاءُ الرّواسي وإنباتُ النّباتِ يُناسبُ المدَّ دونَ غيرِه

سببُ إيثارِ المدّ في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

لم يقُلِ اللّه تعالى هنا (والأرضَ دحوناها) كما جاء في آيةٍ أخرى في قولِه ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: 30]؛

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 284.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 11/442.

لمناسبة إلقاء الرّواسي وإنباتِ ضروبِ النّباتِ لمدِّ الأرضِ الذي هو بمعنى البسْطِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(نا) في ﴿مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا﴾:

الـدَّلالـةُ على وجـوبِ تعظيمِ الخـلّاقِ المبدعِ سبحانه

عبّرَ بـ(نا) الدّالّةِ على تعظيمِ الفاعلِ في الفعلَيْن (مَدَّ وألْقَى)؛ للإشارةِ إلى أنّه لا يَقدرُ على خَلقِ الشّيءِ العظيمِ وإبداعِه إلّا العظيمُ سُبحانه.

دَلالةُ (في) في: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾:

ثـباتُ الجبالِ دلـيـلٌ عـلى بديعِ خلْقِ الله وعظيمِ صُنعِه

لمّا كان حرفُ الجرِّ (في) يفيدُ الظّرفيّةَ المكانيَّةَ هنا دلَّ على أنَّ الأرضَ التي مُدَّت صارتْ ظرْفًا للجبالِ الرَّواسي، بمعنى أنَّ الجبالَ قد تمكّنت منَ الأرضِ وثَبتَت فيها، وفي ذلك إشارةٌ عجيبةٌ إلى بديعِ صُنعِ اللّه سُبحانه في كوْنِ جُزءٍ من هذه الجبالِ في باطن الأرض؛ لتتمكّنَ منَ الرُسوِّ في الأرض وتَثبيتِها.

بديعُ إيثارِ الضَّميرِ في ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا﴾:

الـرّواسي في بـعـضِ مـواضـعِ الأرضِ وأثـرُها يَـعـمُّ جـمـيـعَ الأرضِ

لما كانَ حصولُ الجبلِ يقعُ في جانبٍ في الأرضِ دونَ آخرَ دلَّ على أنَّ الضّميرَ العائدَ إلى الأرضِ في قولِه ﴿فِيهَا﴾ على معنى بعضِ مواضعِ الأرضِ، ففي التّعبيرِ استخدامٌ بَلاغيٌّ، بعَوْدِ الضّميرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ على الأرضِ بمعنى جميعِ الأرضِ، وعودِ الضّميرِ في قولِه: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ على الأرضِ بمعنى بعضِ مواضعِ الأرضِ؛ لأنّ الإلقاءَ لم يَستوعبْ جميعَ الأرضِ، فأفادَ الضّميرانِ العائدانِ على الأرضِ معنيَيْن، أحدُهما إرادةُ الكلِّ والثّاني إرادةُ الجُزءِ؛ إيجازًا في الكلامِ، وللإشعارِ بأثرِ الرّواسي على الأرضِ كلِّها، وإن لم تكن في كلِّ الأرضِ، فإلقاءُ الجبالِ الرَّواسي في بعضِ مواضعِ الأرضِ، وأثرُ ذلك ونفْعُه يَعمُّ جميعَ الأرضِ.

فائدةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾:

تنبيهُ المُخاطَبين إلى عِظَمِ إلقاءِ الـرّواسي والأثـرِ المُترّتِبِ على ذلك

لمّا كان أصلُ الكلامِ: وألقَيْنا رواسيَ فيها؛ أفادَ تقديمُ الجارِّ

والمجرورِ على المفعول به تأكيدَ الإلقاءِ في الأرضِ من غيرِ تخصيصٍ؛ ليُفيدَ التّأكيدُ التّنبيهَ إلى عِظَمِ إلقاءِ الرّواسي في الأرضِ، وعظيمِ أثرِ ذلك فيها.

دَلالةُ قولِه تعالى ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾:

ثباتُ الأرضِ مآلُه إلى قُدرةِ اللهِ المُطلَقةِ

لمّا قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾ دلَّ على أنَّ ثباتَ الأرضِ ليس بسببِ ثِقلِ الجبالِ الرّواسي، بل مآلُه إلى فعْلِ اللّه تعالى وقُدرتِه، فهو أكملُ في التّعبيرِ عن كمالِ قُدرةِ اللّه تعالى.

بَلاغةُ قولِه ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾ بين الكنايةِ والاستعارةِ:

كلُّ فعلٍ عظيمٍ تَتحيَّرُ فيه الأذهانُ هو هيِّنٌ على اللهِ تعالى

لمّا كان إلقاءُ الشّيءِ على معنى طرْحِه؛ إشعارًا بخفَّتِه، عُبِّرَ عن جعْلِ الجبالِ في الأرضِ بإلقائها؛ ليفيدَ اللّفظُ لزومًا خفَّةَ الأمرِ عليه سُبحانه مع عِظَمِ خلْقِ الجبالِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ فعلٍ عظيمٍ تَتحيَّرُ فيه الأذهانُ هو هيِّنٌ عليه سُبحانه، ويحتملُ أن يكونَ اللّفظُ على الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيَّةِ؛ بمعنى: أنَّه شبَّه إلقاءَ الجبالِ الرّواسي بإلقاءِ حَصَياتٍ قبضَهنّ قابضٌ بيده فنبذَهُنَّ، ووجْهُ الشّبهِ: الخفَّةُ والاستقلالُ، تصويرًا لعظمَتِه، وتمثيلًا لقُدرتِه، وأنَّه فعلٌ هيِّنٌ عليه ﷻ[1].

سببُ حذْفِ موصوفِ الوصف: ﴿رَوَٰسِيَ﴾:

أهمُّ وصفٍ للجبالِ هو رُسوُّها في الأرضِ

تقديرُ الكلامِ في: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: (وألقَيْنا فيها جبالًا رواسيَ)، فلم يُذكرِ الموصوفُ لإغناءِ غلبةِ الوصْفِ بالرّواسي عن ذكرِ الجبالِ[2]، ولتوجيهِ ذهنِ المُخاطَبين إلى الوصْفِ الذي يُشعرُ بظهورِ قُدرةِ اللّه وعظيمِ خلْقِه.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿رَوَٰسِيَ﴾:

لمّا كان الإرساءُ هو ثُبوتُ الأجسامِ الثّقيلةِ، واستقرارُها على شيءٍ

---

(1) البروسوي، روح البيان: 4/451.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/347، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/3.

والإقامةُ فيه أو عليه، بحيث لا تنتقلُ عن مكانِها دلَّ على ثِقلِ الجبالِ وثُبوتِها في أحيازِ الأرضِ[1]، ودلَّ ذكرُ الرَّواسي بعد ذكر الأرضِ أنَّها ليست منَ الأرضِ في التّكوين، اعتبارًا بمجرَّدِ العطفِ الذي يقتضي التّغايُرَ دونَ اعتبارِ العُرفِ العادي[2].

ثِقلُ الجبالِ وثباتُها في الأرضِ دليلٌ على قُدرةِ اللهِ وعظيمِ خلْقِه

فائدةُ حذْفِ المفعولِ في ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾:

إنباتُ ضروبِ النّباتِ في الأرضِ من شأنِ الإلهِ الواحدِ الأحدِ سبحانه

حذْفُ مفعولِ ﴿وَأَنۢبَتۡنَا﴾ على معنى إثباتِ فعْلِ الإنباتِ للّه تعالى في الأرضِ؛ لإفادةِ أنَّ هذا الفعلَ هو من شأنِ اللّه تعالى، وأنه لا يمكنُ لهذا الفعْلِ أنْ يأتيَ إلّا منه سُبحانه، وأنَّ غيرَه لا يفعلُه، أو لا يستطيعُ فعْلَه[3]، فيُؤْذِنُ ذلك بظهور آثارِ فعْلِ اللّه الدّالَّةِ على إلهيّتِه وتوحيدِه، ويحتملُ أن يكونَ الحذفُ للعمومِ المُقيَّدِ، والمعنى: أنبَتْنا في الأرضِ ضروبًا منَ النّباتِ مُقيَّدًا بوصْفِ كونِه من كلِّ شيءٍ مقدّرٍ مرتَّبٍ متناسبٍ لا تصلحُ فيه زيادةٌ ولا نقصانٌ.

دَلالةُ الضّميرِ في ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾:

نِعَمُ اللهِ في ضُروبِ النّباتِ مُتنوّعةٌ في الأرضِ وفي الجبالِ

لمّا كان الضّميرُ في قولِه ﴿فِيهَا﴾ يعودُ على ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾، فيحتملُ أن يعودَ على اللّفظِ المذكورِ أوّلًا ليكونَ المعنى: وأنبتْنا في الأرض، ويحتملُ أن يعودَ على الأرضِ بوصْفِ الرّواسي التي فيها، وهذا هو الظّاهرُ في عوْدِ الضّميرِ، فيكونُ المعنى: وأنبَتْنا فيها وفي رَواسيها، تكثيرًا للنّعمِ وتَوسعةً في المِنَّة[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ النّباتَ الذي ينبتُ في الجبالِ أو عليها أدْخلُ في المنفعةِ واللّذةِ منَ الذي ينبتُ في غيرِ الجبالِ، وهذا معروفٌ عند أهلِ الاختصاصِ.

دَلالةُ حرف الجرِّ في ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

لم يُنْبتِ الله من النّباتِ إلّا ما هو موزونٌ ومُقدَّرٌ ونافعٌ

﴿مِن﴾ هنا للتَّبْعيضِ[5]، بمعنى أنَّه تعالى لم يُنبتْ كلَّ شيءٍ، بل

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/90، والبقاعي، نظم الدرر: 10/275.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/55.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 154 - 155.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/472.

أنشأ وأوجدَ بعضَ النّباتِ ممّا هو موصوفٌ بأنَّه موزونٌ مُقدَّرٌ بقَدرِه، قد وُزنَ بميزانِ الحكمةِ، ممّا يصلحُ للخلْقِ وينفعُ النّاسَ.

بَلاغةُ قوله ﴿مَّوۡزُونٖ﴾ بيَن الاستعارةِ والمَجازِ المُرسلِ:

الإنـبـاتُ فيه تقديرٌ وتناسُبٌ وتـوازُنٌ مع مدِّ الأرضِ وإلـقـاءِ الجبالِ

يحتملُ أن يكونَ اللّفظُ على الاستعارة، فشُبِّه تقديرُ الأشياءِ وتحريرُها بالوزْنِ الذي لا زيادةَ فيه ولا نقصانَ؛ للإشعارِ بحُسن إنباتِ الأشياءِ في الأرضِ، وحُسنِ الحكمةِ والتّناسُبِ في إنباتِها وتقديرِها مع مطابقةِ مصْلحةِ الخلْقِ، فالاستعارةُ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، وهذا هو الظّاهرُ، والمعنى: أنبَتْنا في الأرضِ من كلِّ شيءٍ مَقدورٍ جرَى على وزنٍ مِنْ قَدَرِ اللّه ﷻ لا يُجاوِزُ ما قَدَّره اللّه عليه، فالإنباتُ في الأرضِ فيه تقديرٌ وتناسُبٌ وتوازنٌ مع مدِّ الأرضِ وإلقاء الجبالِ، كما أنَّهُ تعالى يَعْلَمُ المِقْدارَ الَّذي يَحتاجُ إليه النّاسُ ويَنتَفِعونَ به، فيُنبِتُ تعالى في الأرْضِ ذلك المِقْدارَ، ويحتملُ أن يكونَ مجازًا مُرسَلًا من إطلاقِ اسْمِ السّببِ على المسبَّبِ، فَكانَ إطْلاقُ لَفْظِ الوزْنِ لِإرادَةِ مَعْرِفَةِ المِقْدارِ؛ لأنَّ الوزْنَ يُعْرَفُ بِهِ مِقْدارُ الشَّيْءِ، والمعنى: وأنبَتْنا فيها من كلِّ شيءٍ معلوم مِقدارُه(1).

بَلاغةُ ترتيبِ المعاني في الآيةِ:

بَـراعـةُ التَّرتيبِ بذكْرِ مَدِّ الأرضِ ثـمَّ إلـقـاءِ الـرّواسي ثـمَّ إنْباتِ النّباتِ

جاء ذكْرُ أفعالِ اللّه تعالى في هذه الآية بتَرتيبٍ عجيبٍ؛ فذكرَ مدَّ الأرضِ، ثم إلقاءَ الرّواسي فيها، ثمَّ الإنباتَ فيها من كلِّ شيءٍ موزونٍ؛ ففيه إشعارٌ بأنَّ إلقاءَ الرَّواسي كان بعدَ مدِّ الأرضِ وبسْطِها، فلولا الجبالُ لمادتِ الأرضُ؛ لأنّها ممدودةٌ مبسوطةٌ، فلمّا ثبتتِ الأرضُ بإلقاء الرّواسي الثّوابتِ وصلُحتْ لإنبات النّباتِ أنبتَ اللّه فيها من كلِّ شيءٍ موزونٍ مقدَّرٍ بقَدرِه لا يحتملُ الزّيادةَ ولا النّقصانَ كما تقدَّمَ.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/176، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/355، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/131.